الحصان

في الفسحة المغطاة بأعواد التبن ونثار الروث والحشيش ، امام الاسطبل ، وقف الحصان رأسه يسقط بين رجليه ، مربوطا الى جذع شجرة ضخمة ، ذيله الاغبر الطويل يتهدل بين لحم ساقيه المزرق ، عظام صدره وظهره تكاد تمزق جلده المليء بخيوط من قرح صغيرة بحجم الدرهم اختلط في داخلها الدم بالصديد . راح صاحبه والسائس يرقبانه . بقي هو ساكنا . الجلد في موضع السرج ، قربا من أسفل العنق ، كان يختلج بعنف بين فترة وأخرى . قال صاحبه اخيرا :

ـ تخلص منه !

قال السائس في أسى .

ـ كان نجم السباق .. كسب الآلاف !

اعترف صاحبه بنبرة لا تخلو من الزهو :

ـ نعم .. كان ..

لكنه اسرع يشيح بوجهه عن الحصان .

*

راح يجر قدميه ببطء في حديقة الدار مستعينا بالجدار . دنا من احدى شجيرات البرتقال ، أمسك بأصابعه الفليظة المعروقة ورقة طرية خضراء ، انتزعها من الغصن ، تحسس نعومتها الباردة تحت لحم اصابعه الخشن ، ثم أخذ يطحنها بين راحتيه المتخشبتين الشاحبتين. سمع من نافذة المطبخ صوت ابنه يقول متذمرا :

ـ ارسلناه اليهم فاعادوه .

رفع راحتيه الى أنفه وبقي ساكنا . كانت الرائحة الحادة الحامضة الحلوة تفوح عبر الشعر الابيض الكثيف النافر من منخريه . لكن حاسة الشم انشلمت فجاة عنده . تركزت حواسه في أذنيه . سمع صوت زوجة ابنه الغاضب :

ـ لم اعد أحتمل .. الا ترى انه بدأ يخرف .. ويهذي ؟؟ بعد ايام ...

ـ اخفضي صوتك !

*

التفت السائس الى صاحب الحصان وساله في حيرة :

ـ كيف اتخلص منه ؟

ـ بعه ..

ضحك السائس بمرارة :

ـ من يشتري حصانا هرما مريضا ؟

ـ اذن دعه يمضي لحاله .

ـ سوف يموت جوعا ..

ـ اصرف عليه أنت .

ارتفع صوت المحرك وراء ظهر السائس ، وابتعدت السيارة ، فلفته هو والحصان سحابة من غبار .

*

قال الابن غاضبا وهو يتهيأ لمغادرة الدار :

ـ سوف نقتل الشجرة .

ـ هي ورقة واحدة .

ـ كل يوم واحدة وتتجرد الاغصان !

ـ حقك ..

ترك نثار الورقة الاخضر الطري يتساقط من راحتيه ، ومسح يديه بثيابه فتركت راحتاه اثرا باهتا اصفر على دشداشته البيضاء . أشاح الابن بوجهه متحاشيا نظرات ابيه وصاح بانزعاج من نافذة المطبخ :

ـ سوف نتأخر !

صاحت الزوجة على الخادمة وهي تهرول لتلحق بزوجها :

ـ لا تدعي الطفلة تخرج الى الطريق !

*

وقف السائس ينظر الى الحصان في حيرة . سمع صهيل مهر غاضب يدك الارض بحوافره في داخل الاسطبل . رأى الحصان يرفع رأسه قليلا يوتر أذنيه لحظة ثم يتركهما ترتخيان ويسقط رأسه بين رجليه من جديد .

*

جلس الكهل على الكرسي في الشمس ينظر ساهما الى شجيرات البرتقال قرب سياج الحديقة . كل يوم واحدة وتتجرد الاغصان ، تموت ، وغدا أنت تهذي ، تخرف .

اقتربت منه الطفلة :

ـ جدي .. هل افتح حنفية الماء ؟

مسد بكفه الباردة شعرها الاشقر النظيف الناعم مثل الخيوط الطرية في كيزان الذرة ، وبقي صامتا . سمعها ولم يسمعها . رفعت اليه عينين صافيتين :

ـ هل افتحها ؟

حدق في عينيها لحظة :

ـ افتحيها !

وتدفق الماء على الثيل الاخضر وسط الحديقة . وحط عصفور

على طرف الانبوب المطاطي الاسود المبلل وراح يشرب وهو يتلفت خائفا . فهمس الكهل :

ـ انظري !

همت الصغيرة ان تتحرك نحو العصفور لكن اصابعه امسكتها :

ـ دعيه يشرب !

*

بقي السائس مترددا فترة طويلة ثم قر عزمه فتحرك نحو الحصان. فك الحبل عن رقبته ووقف ينتظر ، لكن الحصان بقي في مكانه ، لا يريد ان يفارق الاسطبل . لم يكن للحبل ضرورة . وفي فورة غضب ممزق يائس انهال السائس ضربا على الحصان وأخذ يدفعه بعيدا عن الاسطبل والحصان يتطلع اليه بعينيه الكبيرتين الندييتين في حيرة .

*

حول الزبد الابيض المتلألىء بين خضار العشب حطت عصافير اخرى . تشرب في حركات سريعة ، تزقزق في صخب ، ترفرف بأجنحتها ، وتطير متنقلة بين أعالي السياج والارض . وراح الكهل والطفلة يرقبان ما يجري امامهما في فرح . قالت الصغيرة همسا ايضا :

ـ كثيرون !

ـ نعم .

ـ أين ينامون في الليل ؟

ـ في الاشجار .

ـ هنا في الحديقة ؟

نظر الكهل الى شجيرات البرتقال المزروعة في صف واحد قريبا من السياج ، ثم همس مبتسما وهو يشد برفق جسدها الهش الصغير الى عظام صدره :

ـ لا . انها تنام في الاشجار الكبيرة .

ـ لماذا تنام في الاشجار الكبيرة ؟

ـ لكي لا يؤذيها الاولاد الوقحون ولا تأكلها الحيوانات المفترسة .

صمتت الصغيرة تفكر ، ثم صاحت فجأة ، بلا حذر ، وهي تنزع جسدها من بين ذراعيه :

ـ جدي انظر !

هربت العصافير مذعورة . والتفت الجد حيث اشار الاصبع الصغير .

فوق باب الحديقة الداكن الموصد ، في وهج الشمس ، كان ينتصب رأس حصان ابيض وعينه الندية تتطلع اليهما في سكون . كان الرأس هناك منذ مدة لكن لم ينتبه اليه أحد قبل ذلك .

ـ حصان !

هتفت الصغيرة في هياج وهي تندفع الى الباب :

ـ دعني اركبه !

قال الكهل من مكانه :

ـ سوف يأتي أهله لياخذوه .

وقفت الصغيرة تنظر في خيبة الى الرأس الكبير المائل فوق حافة الباب . بعد فترة طويلة من الانتظار صاحت في نفاد صبر :

ـ لم يات احد !

تحامل الكهل على نفسه ونهض . اقترب من الباب . لم يكن في الدرب أحد . شاهد الهيكل المهدم وخيوط القرح الصديدية الصغيرة على الظهر والارجل . تطلع كل منهما في عين الآخر في صمت . وعلا وجه الكهل وجوم . عادت الطفلة تلح من جديد :

ـ دعني اركبه !

ـ انه منهك ومريض .. انظري الى عينيه !

ـ عينه كبيرة !

ـ لقد هرم ..

ـ اذنه كبيرة ايضا ..

ـ ولم يعد يريده احد .

تطلعت الطفلة الى جدها مربكة . أقلقها صوته وبانت الحيرة في عينيها :

ـ لماذا .. لماذا لا يريده احد ؟

ـ لم يعد ينفع .

نظرت الصغيرة الى الحصان طويلا ، ثم التفت الى جدها وقالت متوسلة :

ـ لنفتح له الباب .

نظر الجد الى شجيرات البرتقال والورد في الحديقة وهز رأسه رافضا . أدار ظهره الى الحصان وحرك قدميه باتجاه الكرسي . شعر بعين الحصان في ظهره ، تشده الى الباب . سبتت الصغيرة بدشداشته وقالت في الحاح :

ـ لنفتح له الباب !

وقف مترددا صامتا ، أخذ يمسد بيده الباردة شعر الصغيرة الناعم . التفت الى الحصان . التقت نظراتهما مرة اخرى . قال محذرا :

ـ قفي خلفي !

صارت وراء . ظهره . جر نفسه الى الباب . عندما انحنى ليرفع المزلاج نخزه ألم فظيع حاد في أسفل ظهره فطفر الدمع من عينيه . وقف يلهث مستندا الى الباب . شعر بانفاس الحصان الحارة الرطبة تلامس عنقه . قال وهو يخفي وجهه عن الصغيرة :

ـ ارفعيه انت !

هرعت الصغيرة ترفع المزلاج وتعاونه في دفع فردتي الباب الى الجانبين . تكشف جسد الحصان الناحل كله الآن . أمسك الكهل بيد حفيدته ووقفا جانبا ينتظران ان يتحرك الحصان الى الداخل . ترك الحصان رأسه يسقط في فراغ الباب ، لكنه بقي في مكانه ساكنا. قال الجد وهو يمسك الصغيرة من يدها عائدا الى كرسيه :

ـ لنبتعد عن طريقه .

جلست حفيدته بين ذراعيه وبقيا ينتظران . وتحرك الحصان اخيرا في حمى نشاط مفاجىء ، لكنه بدل أن يدخل عبر الباب المفتوح على مصراعيه تحرك مبتعدا واختفى عن أنظارهما .

سألت الطفلة جدها في دهشة :

ـ لقد ذهب !

قال الجد بحزن :

ـ نعم .

ـ لماذا ؟

ـ خاف يدخل .

لم تصدق .

ـ لماذا خاف يدخل ؟

وقبل أن يرد عليها سمعا صوت شيء ثقيل ينهد على الارض في الخارج ، فتقلصت أصابعه على ذراعها . حاولت ان تتملص من بين يديه .

ـ أريد ان اراه .

لكنه ظل متشبثا بها :

ـ انظري .. لقد عادت العصافير تتجمع حول الماء !

كان الماء قد غمر أرض الحديقة كلها والعصافير تقف في صف طويل ، وفي أوضاع مختلفة ، فوق الانبوب المطاطي المبلل الذي يلمع في الشمس .

ـ أين ذهب ؟

ـ اغلقي الحنفية .. لقد فاضت الحديقة !

انقطع الماء ، وتبدد الزبد الابيض عند رأس الانبوب . ارتفع لغط في الدرب . اختلطت أصوات وتداخلت ، وعبر فراغ الباب خطفت هياكل صبية يركضون . أرادت الصغيرة ان تنفلت الى الدرب ، لكن

أصابعه الفليظة اليابسة ظلت تمسك بها . عادت تسأل في الحاح :

ـ أين ذهب الحصان ؟

قال صوت واضح النبرات من وراء الجدار : « ليخابر أحدكم امانة العاصمة يزيحوه عن الدرب » .

ـ جدي .. أين ذهب ؟

ـ ذهب لينام .

ـ لينام ؟

ـ نعم .. والآن اذهبي الى الداخل .. الشمس تؤذيك هنا .. لا تخرجي الى الدرب .. ابوك يغضب .. والحصان ايضا لانه لا يحب ان يراه احد وهو نائم .

تابعها بنظراته وهي تبتعد بخطى مترددة .. وقفت امام البـاب المفتوح لحظات .. التفتت اليـه .. راته ينظر اليها محذرا فضحكت وراحت تركض الى الداخل .

*

عندما عاد الابن وزوجته بعد الظهر وجدا الكهل يجلس مطرقـا في الظل الذي غطى الآن نصف الحديقة . نظر الابن الى باب الحديقة المفتوح على مصراعيه ، وتساءل في دهشة :

ـ من فتح الباب ؟

رفع الكهل راسه اليهما :

ـ انا فتحته .

اقتربت الزوجة ووقفت وراء زوجها . قال الابن :

ـ لماذا ؟

ـ ليدخل الحصان !

تطلع الابن الى زوجته في حيرة فهمست في اذنه :

ـ الم اقل لك ؟

ـ عن اي حصان تتكلم ؟!

ـ حصان عجوز مريض مر الصبح من هنا .

اغلق الابن باب الحديقة في صمت وهو يهز راسه . اقتـربت الزوجة من الكهل وسالته في مكر :

ـ وهل دخل الحصان ؟

ـ لا . وقف هناك ينظر الى شجيرات البرتقال بعينه الكبيرة . اراد ان يمد يده وينتزع له ورقة صغيرة طرية ويسحقها ثم يشمها .. لكنه خاف .. وانصرف .

التفتت الزوجة الى الابن :

ـ هل صدقتني الآن ؟

واجه الابن اباه في حنق :

ـ تهيا لنذهب عصر اليوم الى بيت أخي سالم.. لقد سال عنك !

لم يقل الكهل شيئا . اطرق براسه . الجلد المجعد لخـده الايسر رجته تشنجات سريعة متلاحقة .

عندما ابتعدت خطاهما رفع راسه ببطء وتطلع الى باب الحديقـة الموصد . في الفراغ الممتد امامه ، في نفس المكان الذي كان ينتصب فيه في الصباح ، طالعه راس الحصان الهرم المريض . في البدء مثل سحابة صغيرة من دخان رجراج . لكن الراس اخذ يكبر .. يتضخم .. ويسبح ، كلما اطال النظر اليه ، حتى سد عليه منافذ السماء !

بغداد

مهدي عيسى الصقر

دار الآداب تقـدم

هربرت ماركوز

ترجمة ادوار الخراط

نحو التحرر

فيما وراء الإنسان ذي البعد الواحد

فيما وراء الانسان ذي البعد الواحد ، كيف السبيل الـى تحرر الانسان ؟ هذه هي المسالة الاساسية التي يحمل اليها هربرت ماركوز عناصر الاجابة في الدراسة الراهنـة الموضوعة بين يـدي القـراء .

وهو يرى ان الطريق الجديدة المتاحة اليـوم تمر بالاعتراض والاحتجاج الدائميـن .

ففي قلب المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا ، سواء كانت اشتراكية ام راسمالية ، يتيح الاحتجاج وحده تجديد حاجات البشر وارضاءها برفض قواعـد « اللعبة » القمعيـة .

وبعد ان ينتقد ماركوز الانظمـة الاجتماعية الحالية ، يضـع في هذا الكتاب الهام الذي يعتبر تتمة لكتابيه « الانسان ذو البعـد الواحد » و« فلسفة النفي » مبادىء عمل سياسي بناء ..

٢٠٠ ق . ل

صدر حديثا